رسالة من الريحاني

بقلم خليل الهنداوي

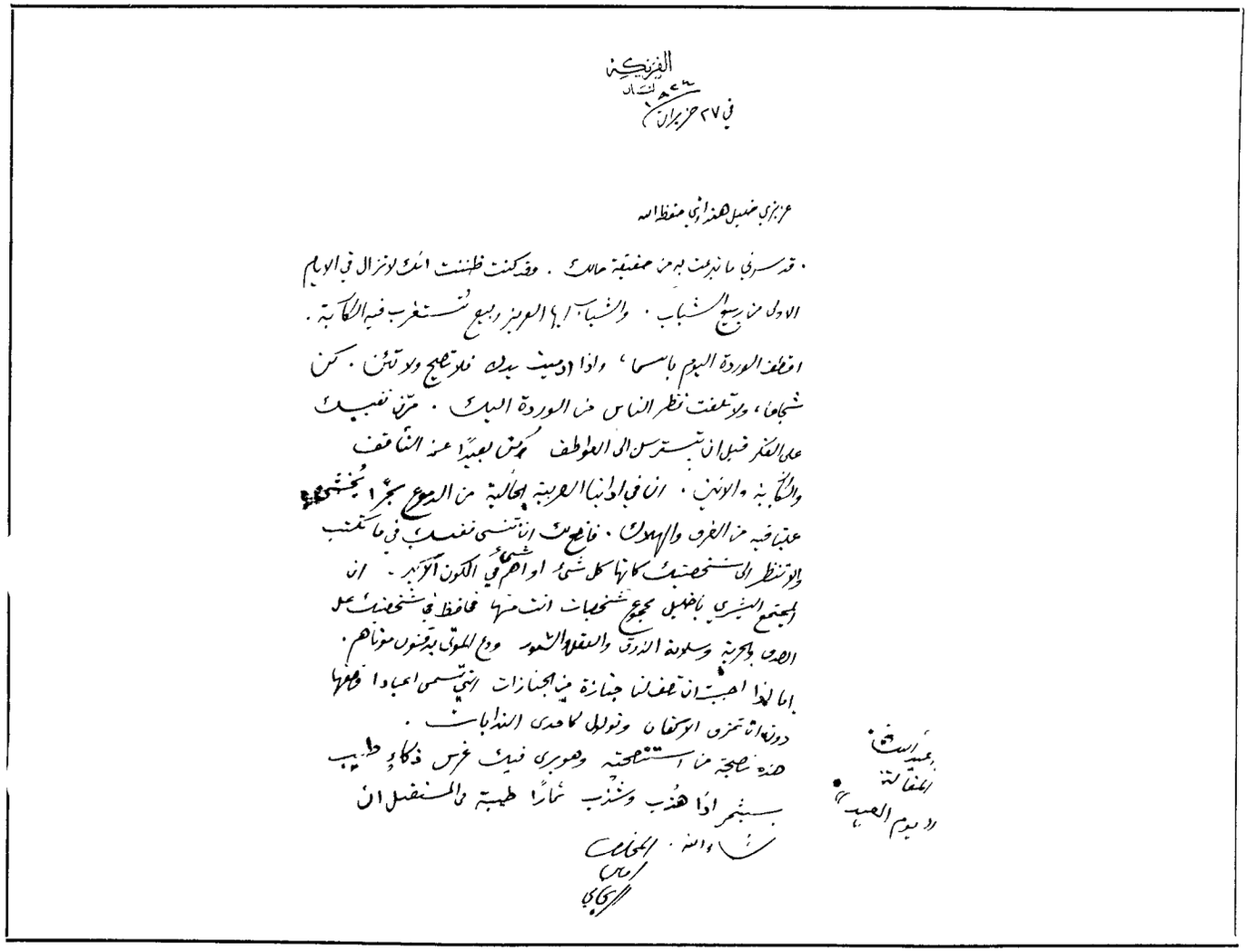

هذه رسالة ـ على تطاول عهدها لا تزال جديدة في تحديدها مفهوم الادب الصحيح ، لان الريحاني كان واسع المدى في نظرته الى الادب .

فهو يوجه الخطاب الي ، حين كنت فتى يدرج الـى عالم الادب بخطى وئيدة ، مترجرجة ، تعمل فيه مؤثرات مختلفة ، متقاربة ، مما كان ينحدر اليه من الادب العربي الحديث الذي كان طافحا بالشكوى والمرارة.

ـ وادب الشكوى والانين كان ينقم عليه الريحاني ويجد فيه جذورا منخورة ، لا يثبت عليها الا الضعف والهوان ـ ومما كان يقتبسه من الادب القديم الذي لم يكن نصيبه من الانين اقل من نصيب الادب الجديد، ومن الادب الغربي الذي كان ينصب علينا بمقدار .

ولذلك ، وجد من حقه ان يوجه الشباب الى المعاني التي ينبغي ان يستوحي منها الشباب ، واذا كان الشباب هو زهر العمر ، وصميم الحياة فلماذا نلفه بالكآبة ، والتمزق والضياع ؟

ومن عجيب المصادفات ان اتلقى رسالة من الاديبة السيدة « ماري يني » صاحبة مجلة « منيرفا » التي كانت الرائدة الاولى في عالـم المجلات ، تلتقي فيها مع الريحاني فكرا ، وجوهرا ، واسلوبا .

ومما ورد في رسالتها الي :

« كآبة الشباب هي حلم من احلام الشاعر تنزل عليه في ساعات الوحدة ، فتصور له الاماني سرابا . وما احرى الصبا ان يكون مسرح الطرب والانس ، وان تتحول فيه اشباح الكآبة الى زهو ، يرغم الدهر على الابتسام ، فان سكب الدموع اذا لم يكن سببا للضعف وحده فيكفيه ان يكون حجة للدهر علينا تزيد في نقمته منا ، وانتصار قواه علـى ضعفنـا ...

دعاني الى هذا الكلام ما لقيته في رسالتك الاولى من كآبتـك الحزينة التي يؤلمني ان اراها تنهش قلب الشباب بانيابها الحادة ،كما انني لا ارى لنا نهوضا اذا لم نتغلب على كل ضعف ، ونبتسم حتـى للمصاعب ! »

ومصدر الغرابة فيها لا كما يعزو شيوخ الادب الذين يسوء ظنهم في الادب الحاضر لمجرد خروجه عن العمود المعروف ، وضربه للقواعد ،

واستخفافه بالمصطلحات اللغوية ، لان لهذا شأنا اخر لست ابالي به . ولكن منشأ الغرابة عندي هو اعمق واخطر .

لقد كنا في الحداثة نكثر من الادب الباكي ، والشدو الحزين ، لان كل ما كان حولنا يشعرنا باننا في مأتم .. ومع ذلك كانشيوخنا المفكرون ينكرون علينا هذا البكاء ، ويدعوننا الى روح المقاومة والعنف ، لان البكاء استسلام وخزي ، والمقاومة هي من صميم الحياة .

واليوم ، ينصرف ادباؤنا الشباب عن البكاء ، لا لان الدمع تجمد في عيونهم ، ولكن ... لان دوافع اخرى تجذبهم الى هاوية اعمق !

لست ادري مرد شيوع افكار التمزق والضياع والقلق في ادبنا اليوم ، في شعره ونثره . واكثر ما يشيع هذا الضرب من الافكار في ادباء الشباب الذين باتوا يتحدثون عن هذا الضياع كحقيقة لا بد منها!

« لا بد لمن يجد نفسه ان يضيعها !

لا بد لمن يولد ان يتمزق !

لا بد لمن يريد الاستقرار ان يقلق اولا »

خواطر جدية ، وصور مغرية ... ولكن من اين تأتي هذه الخواطر؟ هل نحن نستمدها من اعماق اعماق نفوسنا ؟ هل نحن نستوحيها من الواقع الذي نحياه ؟ لا .. والف لا !

انها خواطر يدفعنا اليها التقليد ، والتبعية لادب جنيناه من غير ارضنا ، وغير روحنا ، له عوامله الخاصة ، ومجتمعه الخاص . فلماذا نترك ارواحنا وافكارنا تنجرف به انجرافا أعمى .

نحن الذين لم نولد بعد ... لماذا نعمل المشارط في هذا الجنين قبل ان يخرج الى الوجود ؟

نحن الذين لا نتحسس وجودنا بثقة وتصميم ، لماذا نفتش عن متاهات القلق ، وندفن انفسنا فيها ؟

اولئك يحيون في مجتمع قلق ، معقد ، شلته الحضارة الحديثة المادية ، فلماذا نحمل انفسنا باظلافنا الى ذلك المجتمع ؟

الشباب يذوب تحت مطارق التمزق والقلق بينا نحن في سبيل بناء مجتمع جديد متفتح ، وتشكيل شخصية واضحة الملامح ، مؤمنة بنفسها .

لقد كنا في الضياع ، فهل نفتش عن ضياع اخر اقسى ؟ وامد ابعادا في عالم الوهم ؟

لقد كنا في تمزق ، فهل نبحث عن تمزق اخر ؟

اننا لم نفكر حتى الان تفكيرنا الذاتي ، ولم نجد انفسنا ، فكيف نفكر في الضياع ؟

لنولد اولا ! لنتفتح ! لنشعر بشخصيتنا وكياننا ، لان التمزق ، لمجرد التمزق ، ليس هو الغاية .

لذلك ، رأيت لزاما علي ، ان انشر هذه الرسالة الكريمة ،وارجع الامانة الغالية الى أصحابها الشباب لتكون متجها جديدا لهم ، يفيدون منها ما اخذناه في ذلك الحين .

وانطلاقا من هذه الغاية يحدد الريحاني «مذهبه الادبي» واضحا ، ويفضي به الى الشباب الادباء ... حيث نراه يدعو الى :

١ ــ البعد عن الكآبة المفتعلة ، وفي حال وجودها الحقيقي يجب مقاومتها .

٢ ــ والتمسك بالفكر دون الاسترسال الى العواطف .

٣ ــ والبعد عن تكلف الانين ، وذرف الدموع الكاذبة التي اغرقت ادابنا العربية .

٤ ــ والتخلص من قيود الذاتية الضيقة ، والانطلاق من عالم الذات الى العالم الذي هو « الذات الكبرى » ، دون ان يجعل الاديب ذاته محور الكون . وما الاديب الا شخصية تحيا مع شخصيات تماثلها.

٥ ــ والحرص ــ في التعبير ــ على الصدق والحرية وسلامة الذوق والعقل والشعور .

٦ ــ عدم الاحتفال بمن ماتت نفوسهم ، لان الادب الصحيح موضوعه الحياة ، والاحياء . اما الاموات فليدفنهم الاموات انفسهم . واما الفجائع في الحياة فليكن تصويرها تصويرا واقعيا دون ندب وتفجع ، لان ذلك اصدق وقعا في النفس .

وبعد ، فهل كان الريحاني امينا لهذا المذهب الذي لخصه في هذه الرسالة الصغيرة ؟ واذا لم يكن الريحاني صادقا امينا لمذهبه ، فكيف كتب ، اذا ، فصوله ؟

ان الريحاني يبدو كأنه يدين بالالتزام .. فهو يلفت الاديب الى ان واجبه الاول ان يطل من نافذته ، لا ليرى ذاته ، بل ليرى هذه المجموعة من الناس ، وهو واحد منها ، دون ان ينطوي على نفسه،ويضم اذنيه ، ويغمض عينيه عما يراه في امته ، ومجتمعه ، وانسانيته !

ومجتمعنا ــ عند الريحاني ــ مجتمع مريض ، انهكته امراض مختلفة ، منها امراض توارثها عبر العصور ... عصور الجهل والذل والتعصب .. ومنها امراض حديثة تمشت في جسده . وليس كالاديب من يكشف عن هذه الامراض ، ويكافحها ، ويعمل على تنقية الجسد الاجتماعي منها . ولهذا نهج الريحاني في أدبه نهجا اختطه لنفسه ، ليطلع على غيره ، ولم تفتنه تلك الزخارف الزائفة ، ولم تمنعه عواطفه عن ان يسعى الى الحقيقة بعقله ! لان المجتمع المتين لا يبنى ــ عنده ــ على العواطف ، والاحاسيس التي تطفو لحظة ، ثم تغيب .

والريحاني ــ في صميم احساسه ــ عاني الالم ، وتقلب على الالم ، ولم يدعه يربض في قلبه . وريحانياته الاولى مثل لانشاء العقل الذي يلجم العاطفة . ومثل للصراحة التي تضيق بالمجاملة ... وقد عرض لمشاكل كثيرة ، وعالج افات اجتماعية خطيرة ، دون ان يعالجها بروح اليأس والتأفف والكآبة . وهو ، وان اطلق افكاره بشعوره النفسي فانه لم يسمح لهذا الشعور ان يطغى ، بل كان جامعا لدوافع العاطفة ، ورصانة الفكر .

وكان ، بعد ذلك ، في مقالاته مثال الصدق الذي لم يخن فيه عقيدته ، ومثال الحرص على ابداء ارائه بحرية جريئة ، وان خالف فيها الكثير من المعتقدات والموروثات والاهواء .

وما دام الريحاني يدعو في جوهر الادب الى ان يمثل القوة والمتانة فان من المسلم به أن يختار له هذا الاسلوب البسيط الذي يتمثل فيه الصدق والحرية وسلامة الذوق ، والعقل والشعور .

خليل الهنداوي

صدر حديثا :

ثورة الفقراء

بقلم رجاء النقاش

ثورة الجزائر المظفرة التي وصفها الرئيس بن بيللا بأنها « ثورة الفقراء » .

طبعة جديدة — منشورات

الثمن ليرتان لبنانيتان — دار الاداب